KING KHALID UNIVERSITY

مجلة

جامعة

الملك خالد

للعلوم الإنسانية

دورية علمية نصف سنوية

محكمة

المجلد التاسع - العدد الأول

ذو الحجة 1443هـ - يونيو 2022م

مجلة جامعة الملك خالد للعلوم الإنسانية

King Khalid University Journal of Humanities

مجلة علمية، نصف سنوية، مُحكمة

تصدر عن جامعة الملك خالد

المجلد (٩) – العدد (١)

(١٤٤٣هـ) – (2022م)

للتواصل:

مجلة جامعة الملك خالد للعلوم الإنسانية، الرمز البريدي

٦١٤١٣ صندوق البريد ٩١٠٠

الموقع الإلكتروني:

www.hj.kku.edu.sa

البريد الإلكتروني: humanities@kku.edu.sa

الرقم الدولي المعياري (ردمد) ٦٧٢٧- ١٦٥٨

ISSN:1685-6727

رقم الإيداع ١٤٣٥/٣٠٧٦ بتاريخ ١٤٣٥/٣/١٢

المشرف العام

معالي رئيس جامعة الملك خالد

أ.د. فالح بن رجاء الله منيع السلمي

نائب المشرف العام

وكيل الجامعة للدراسات العليا والبحث العلمي

ا.د. حامد مجدوع القرني

رئيس هيئة التحرير

أ.د. يحيى بن عبد الله الشريف

رئيس هيئة التحرير

أ.د/ يحيى بن عبد الله الشريف

جامعة الملك خالد

هيئة التحرير

أ.د/ عوض بن عبد الله القرني

جامعة الملك خالد

أ.د. عبد العزيز محمد رمضان

جامعة الملك خالد

أ.د. لي إن سوب

جامعة هانكوك للغات الأجنبية –كوريا

أ.د/ ماريا خيسوس بيغيرا

جامعة كومبلوتنسي – إسبانيا

أ.د/ عبد الرحمن السليمان

جامعة لوفان – بلجيكا

د. سلطانة بنت محمد الشهراني

جامعة الملك خالد

د/ متعب بن عالي القرني

جامعة الملك خالد

مدير التحرير

د/ عادل معتمد عبد الحميد

جامعة الملك خالد

التعريف بالمجلة:

مجلة جامعة الملك خالد للعلوم الإنسانية دورية علمية محكمة متخصصة في العلوم الإنسانية، وتهدف إلى نشر الإنتاج العلمي للباحثين في تخصصات العلوم الإنسانية، وتعنى بالبحوث الأصيلة التي لم يسبق نشرها باللغتين العربية والإنجليزية، والتي تتسم بالمصداقية واتّباع المنهجية العلمية السليمة.

أهداف المجلة:

تهدف المجلة إلى أن:

١. الإسهام في إبراز دور الحضارة الإسلامية في إثراء العلوم الإنسانية.
٢. نشر البحوث العلمية المحكمة في مجال العلوم الإنسانية بفروعها المختلفة.
٣. الإضافة إلى الرصيد المعرفي في الدراسات الإنسانية.
٤. إبراز جهود الباحثين في الدراسات والبحوث العلمية ذات الصلة بموضوعات الإنسانيات

شروط النشر:

١. أن يتصف البحث بالأصالة والابتكار والجدة واتباع المنهجية العلمية الملائمة، وصحة اللغة وسلامة الأسلوب.
٢. ألا يكون قد سبق نشره أو قدم للنشر في مكان آخر، ويتعهد الباحث كتابةً ألا يكون البحث قد سبق نشره أو قد قدم للنشر مزامنة مع تقديمه للنشر في مجلتنا إلى مجلة أخرى حتى يتم اتخاذ القرار المناسب في هذا الشأن.
٣. ألا يكون البحث جزءاً من كتاب منشور أو مستلاً من رسالة علمية.
٤. ألا تزيد عدد صفحات البحث عن ٤٠ صفحة.
٥. تخضع جميع البحوث المقدمة للنشر في المجلة للتحكيم بعد اجتيازها مرحلة الجرد الداخلي.
٦. لا يجوز نشر البحث أو أجزاء منه في مكان آخر بعد إقرار نشره في مجلة جامعة الملك خالد للعلوم الإنسانية إلا بعد الحصول على إذن كتابي بذلك من رئيس التحرير.
٧. موافقة المؤلف على نقل حقوق النشر كافة إلى المجلة، وإذا رغبت المجلة في إعادة نشر البحث فإن عليها أن تحصل على موافقة مكتوبة من صاحبه.
٨. يمنح المؤلف نسخة واحدة من العدد المنشور فيه بحثه، وجميع أصول البحث التي تصل إلى المجلة لا تردّ سواء نشرت أم لم تنشر.

متطلبات النشر وتعليماته:

١. تصنف المواد التي تقبلها المجلة للنشر وفق ما يأتي:

أ. البحث أو الدراسة:

من عمل المؤلف في مجال تخصصه، ويجب أن يكون أصيلاً، وأن يضيف جديداً للمعرفة.

ب. المقالة:

وتتناول العرض النقدي والتحليلي للبحوث والكتب ونحوها التي سبق نشرها في ميدان معين من ميادين الدراسات الإنسانية.

ج. منبر الرأي:

رسائل القراء إلى المحرر والردود والملحوظات التي ترد إلى المجلة.

٢. بالنسبة للبحوث والدراسات، تنشر المجلة البحوث الآتية فقط:

أولا: البحوث الميدانية (الإمبريقية):

يورد الباحث مقدمة يبين فيها طبيعة البحث ومبرراته ومدى الحاجة إليه، ثم يحدد مشكلة البحث، ثم يعرض طريقة البحث وأدواته، وكيفية تحليل بياناته، ثم يعرض نتائج البحث ومناقشتها والتوصيات المنبثقة عنها، وأخيراً يثبت قائمة المراجع.

ثانياً: البحوث النوعية التحليلية:

يورد الباحث مقدمة يمهد فيها لمشكلة البحث وأسئلته مبيناً فيها أهميته وقيمته في الإضفاء إلى العلوم والمعارف وإغنائها بالجديد، ثم يقسم العرض بعد ذلك إلى أقسام متسلسلة ومترابطة على درجة من الاستقلال فيما بينها، بحيث يعرض في كل منها فكرة مستقلة ضمن إطار الموضوع الكلي ترتبط بما سبقها وتمهد لما يليها، ثم يختم الموضوع بخلاصة شاملة وتوجيهات، وأخيرا يثبت قائمة بالمراجع.

٣. أن يحتوي البحث على: عنوان البحث باللغتين العربية والانجليزية وملخص باللغتين العربية والإنجليزية في صفحة واحدة بحدود (١٥٠) كلمة لكل ملخص، وأن يتضمن البحث كلمات دالة على التخصص الدقيق للبحث باللغتين وسيرة ذاتية مختصرة للباحث او الباحثين.

٤. تقدم البحوث مطبوعة بخط (Traditional Arabic) حجم (١٦) للنصوص في المتن، ويكتب البحث على وجه واحد، مع ترك مسافة ١,٠ بين السطور.

٥. إن سياسة المجلة تستوجب (بقدر الإمكان) أن يتكون البحث من الأجزاء التالية:

- **(للبحوث الامبريقية – الميدانية):**

مقدمة الدراسة، مشكلة الدراسة، وأهدافها وأسئلتها/ أو فرضياتها، أهمية الدراسة، محددات الدراسة، التعريفات بالمصطلحات، إجراءات الدراسة، وتتضمن: المجتمع والعينة، أداة الدراسة، صدق وثبات الأداة، المنهج المتبع في الدراسة، ثم عرض النتائج، ومناقشتها، وأخيراً الاستنتاجات، والتوصيات.

٦. يراعى في أسلوب توثيق المراجع داخل النص وفق نظام جمعية علم النفس الأمريكية (APA).

٧. يرجى الرجوع إلى موقع المجلة على الإنترنت لمزيد من التفاصيل على العنوان التالي:

- موقع المجلة الإلكتروني: hj.kku.edu.sa.

٨. توجّه جميع المراسلات إلى رئيس هيئة التحرير على العناوين التالية:

- مجلة جامعة الملك خالد للعلوم الإنسانية، الرمز البريدي ٦١٤١٣ صندوق البريد ٩١٠٠

- الإيميل:humanities@kku.edu.sa

مقدمة التحرير

هذا هو العدد الأول من المجلد التاسع لمجلة جامعة الملك خالد للعلوم الإنسانية قد تم بحمد الله.

وقد اشتمل على عدد من البحوث التي روعيت فيها معايير البحث الرصين والتحليل العلمي الموضوعي. والمجلة تسعد باستقبال الأبحاث التي تراعي شروط النشر ، وتمثل إضافة علمية في حقل العلوم الإنسانية التي تتنامى أهميتها ، وتزداد الحاجة إليها في ظل التطورات العلمية الحديثة على الساحة الأكاديمية محليا ودوليّا، وتتجه المجلة إلى تجويد عملها بانتقاء الأبحاث المتميزة التي تغطي موضوعات العلوم الإنسانية ، كما تعمل على تحقيق أفضل الممارسات في النشر العلمي ، والغاية من ذلك إبراز دور الحضارة العربية والإسلامية ، والإضافة إلى رصيدها المعرفي في الإنسانيات ببحوث رصينة تظهر جهود الباحثين الأصيلة والمبتكرة والمتبِعَة للمنهجيات العلمية.

وفي العدد الحالي يعرض الدكتور مسفر الأسمري دراسة بلاغية تحليلية لقصيدة أبي فراس الحمداني " أراك عصي الدمع " يبرز فيها مظاهر الإباء والأنفة ، ثم يتناول الدكتور / علي السهلي بقراءة تداولية تجليات المقام في خطب ابن نباتة ، ثم تعرج بنا الدكتورة / عائشة الشماخي في بحثها الذي درست فيه سيمياء العنوان في ديوان " موت يشتهي الورد "، ثم ينتقل بنا الباحثان م/ هويدا العطاس و أ.د/ محمد الدغيري لدراسة التفاعل المكاني بين المدن بمحافظة صبيا – دراسة في التخطيط والتنمية الإقليمية ، ثم تتناول الدكتورة / أريج المحضار قضية التعاطف مع الذات وعلاقته بالقلق والشعور الإيجابي والسلبي في ظل جائحة كورونا المستجد (COVID19)لدى طلبة الجامعة ، ثم تحلل الدكتورة / وداد القرني منظومة معوقات العمل التطوعي تحقيقا لأهداف رؤية المملكة العربية السعودية ٢٠٣٠ ، ثم يخصص الدكتور / مرعي العمري دراسة استكشافية عن مدى إمكانية تطبيق سياسة القيمة العادلة لتقييم الأصول غير المالية بالشركات المساهمة السعودية.

وبعد: فإني لأرجو أن يجد الباحثون والقراء في هذه الأبحاث المتنوعة ما ينشدونه وما يطمحون إليه، والله الموفق

رئيس هيئة التحرير

أ.د. يحيى بن عبد الله الشريف

قائمة المحتويات

عنوان البحث **الصفحة**

مقدمة التحرير.....

1. الإباء والأنفة في شعر أبي فراس الحمداني قصيدة «أراك عصي الدمع» أنموذجًا ١-٢٨

د. مسفر بن محمد الأسمري.....

2. تجليات المقام في خطب ابن نباتة الفارقي ومقوماتها ٢٩-٥٢

د. علي بن ناصر السهلي.....

3. سيمياء العنوان في ديوان موت يشتهي الورد ٥٣-٧٢

د. عائشة قاسم محمد الشماخي.....

4. التفاعل المكاني بين المدن بمحافظة صبيا – دراسة في التخطيط والتنمية الإقليمية. ٧٢-١٢٦

أ.د محمد بن إبراهيم الدغيري، أ. هويدا بنت السيد محمد العطاس .....

5. التعاطف مع الذات وعلاقته بالقلق والشعور الإيجابي والسلبي في ظل جائحة كورونا المستجد (COVID19) لدى طلبة الجامعة ١٢٧-١٦٣

د. أريج سالم المحضار.....

6. تحليل منظومة معوقات العمل التطوعي تحقيقاً لأهداف رؤية المملكة العربية السعودية ٢٠٣٠ ١٦٤-١٩٦

د. وداد القرني.....

7. دراسة استكشافيَّة عن مدى إمكانيَّة تطبيق سياسة القيمة العادلة لتقييم الأصول غير الماليَّة بالشركات المساهمة السعودية ١٩٧-٢٢٥

د. مرعي بن علي العمري.....

المواد العلمية المنشورة في المجلة تعبر عن آراء أصحابها

أبحاث العدد

تجليات المقام في خطب ابن نباتة الفارقي ومقوماتها

د. علي بن ناصر السهلي
أستاذ الأدب والنقد المساعد بجامعة الملك خالد

المستخلص:

تهدف هذه الدراسة إلى قراءة خطب ابن نباتة الفارقي قراءة تداولية، وتتناول موضوعاً دقيقاً ومهماً في النقد الحديث، هو تجليات المقام التخاطبي ومقوماته، وقد اعتنى البحث في القسم الأول بمقام المتكلم وكشف وضعية الخطيب وأحواله ورؤيته الذاتية والموضوعية، ثم مقام المخاطب الذي أسهم في توجيه الخطبة نحو أهداف إقناعية وتأثيرية، واهتم بأحوال المخاطبِين ومقاماتهم.. وفي القسم الثاني كان مجال الدراسة متجها نحو مقومات خطب ابن نباتة، فظهر المقوم السردي الذي كشف عن مضامين سردية تجعل الخطبة مندرجة ضمن حرم الأدبية، كما تجلى لنا المقوم البلاغي الذي أظهر براعة الخطيب وقدرته على توظيف البلاغة توظيفاً حجاجياً. ثم يأتي المقوم الدلالي كاشفاً عن جوانب ثقافية واجتماعية يطرحها ابن نباتة ضمن نصوصه، وهي جوانب تعبر عن مواقفه الذاتية ورغباته الشخصية.

الكلمات المفتاحية: ابن نباتة، خطبة، مقام تخاطبي، متكلم، مخاطب، مقوم ســـردي، مقوم بلاغي، مقوم دلالي.

Manifestations Of the Maqam in the Sermons Of Ibn Nabatah Al-Fariqi And Its Components

Dr. Ali Nasser Al-Sahli
Assistant Professor of Literature and Criticism at King Khalid University

Abstract:

This study aims to read the sermons of Ibn Nabatah Al-Fariqi, a pragmatic reading, and it deals with a precise and important topic in modern criticism, which is the manifestations of the conversational maqam and its components. In the first section, the research focused on the position of the speaker and revealed the position of the speaker, his conditions, and his subjective and objective vision, then the position of the addressee directing and persuading them towards persuasive and influential goals, and concerned himself with the conditions and positions of the addressees. In the second section, the field of study was oriented towards the components of Ibn Nabatah's speeches, so the narrative component appeared which revealed narrative contents that make the sermon fall within the literary precincts. Then comes the semantic component, revealing the cultural and social aspects that Ibn Nabatah raises in his texts which are aspects that express his personal attitudes and personal desires.

Keywords: Ibn Nabata, sermon, discourse modifier, speaker, addressee, narrative component, rhetorical component, semantic component

المقدمة:

شهد العصر الحديث طفرة في دراسة اللسانيات، وتحليل الخطاب، الأمر الذي أدى إلى انفتاح الخطاب الأدبي على ضروب شتى من المناهج والآليات، التي تتجاوز بنية الخطاب اللغوية، والمعنوية، والتركيبية، إلى الوقوف على مقاصد المنشئ، ومقومات إنتاج الخطاب، وسياق التلقي؛ وقد سعيت في هذه الدراسة إلى الوقوف على استعمال اللغة من جهة المتكلم والمخاطَب، والأبعاد السياقية الحافّة بالخطب من جهة أخرى. ذلك أن وضوح مقصدية المتكلم، ووضوح المعنى عند المخاطَب؛ يزيد من تماسك التواصل الاجتماعي بين أطراف عملية التخاطب، ويعزز الانسجام جيداً. وقد اخترت خطب ابن نباتة مدونة للتطبيق؛ لاستجلاء تجليات المقام، والكشف عن مقومات الخطب؛ إذ إن التواصل الفعّال لا يتأتى بالاعتماد على كفاءة اللغة وحدها، وإنما بكيفية استعمال اللغة في الخطاب، والذهاب إلى ما وراء المعنى المحدد، ولا ريب أن تجليات المقام ومقوماته؛ تحتل اليوم مكانة مهمة في الدرس الأدبي والنقدي. ولم أقع على دراسة مستقلة تناولت تجليات المقام في خطب ابن نباتة الفارقي، ومقوماتها؛ غير أن هناك بعض الدارسين تنالوا المدونة بالدرس معرضين عن الاهتمام بتجليات المقام، ومن هذه الدراسات:

١. خطب ابن نباتة الفارقي، دراسة في الرؤية والفن، خالد محمد الجديع، عالم الكتب، مج٢٧، ع٥-٦ الربيعان- الجماديان ١٤٢٧هـ، اتجهت هذه الدراسة نحو الرؤية الوصفية للخطب، مبرزة السمات الفنية التي اتسمت بها الخطب، وقد أضاءت هذه الدراسة نقطة مهمة في قراءة مقام المخاطب، وأولت ابن نباته بوصفه مخاطباً عناية كبيرة، وانطلق الجديع من تشخيص حال المخاطب، ونظره في منزلته من زاوية فنية. غير أن هذه الدراسة لم تكشف عن القيمة التداولية للمقام، ولم تقف عند تجلياته في خطب ابن نباته. بالإضافة إلى أنها لم تتعرض لمقومات الخطب التي هي صلب هذا البحث.

٢. خطب ابن نباتة الفارقي البنية والأسلوب (دراسة تحليلية)، لميس داود، دار الفكر المعاصر للطباعة والتوزيع والنشر، ٢٠٢٠م، ط١، وقد اتجهت دراسة الباحثة نحو تحليل بنية الخطب، والوقوف على خصائص أسلوبها، غير أنها لم تتناول تجليات المقام في تلك الخطب. وسأعتمد المنهج التداولي في دراسة هذه المدونة؛ لأنه الأنجع في كشف تجليات المقام ومقوماته. ذلك أن المنهج التداولي يهتم بالجانب الوظيفي والسياقي داخل النص، ويدرس استعمال الكلام، وهو منهج يدرس استعمال اللغة في الخطاب، شاهدة في ذلك على مقدرتها الخطابية (الصراف علي، ٢٠١٠، ص٨٤).

وقد قسمت الدراسة قسمين: أولها تجليات المقام، وسأدرس في هذا القسم مقام المتكلم أي الخطيب ابن نباتة، ومقام المخاطب أي المتلقين بوجهٍ عام. أما القسم الثاني، فسأهتم فيه بمقومات الخطب، وأعني المقوم السردي، والمقوم البلاغي، والمقوم الدلالي واستعمال أدوات الحجاج في تلك الخطب.

أولا: تجليات المقام:

إن القراءة الفاحصة لمدونة البحث تكشف بجلاء عن عناية ابن نباتة بالأوضاع التي أنجز فيها خطابه، من حيث ظروف النشأة، والعلاقة التواصلية بين المتكلم والسامع، وما يرومه الخطاب من غايات يسعى المتكلم إلى تبليغها. وقد سبق الجاحظ (ت٢٥٥هـ) إلى بلاغة الخطاب وبلاغة السياق، وأسهم بنظرته الثاقبة إلى بيان مراعاة مقام التلفظ، وبأهمية ملاءمة الألفاظ للمقام (الجاحظ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ص ص ١٤٧-١٤٨). وتتعدد الخطابات وتتنوع بحسب أغراضها، والظروف الحافّة بها. وذلك أن لكل مقام مقتضى غير مقتضى الآخر (السكاكي، ١٩٧٨م، ص ١٦٨). لقد أولت التداولية عنايتها بالمقام؛ حيث دعت إلى النظر في الظروف التي ينشأ التعبير في محيطها، وهيئات المتخاطبين، والهُوية الاجتماعية والفكرية التي ينتمون إليها (ديكرو و جان، ٢٠٠٧م، ص ١٦٨). وقد استوجبت دراسة تجليات المقام في المدونة المدروسة النظر في التداولية. ذلك أن المنهج التداولي يهتم بدراسة الأقوال المنجزة والكشف عن المقام وارتباطه بمقاصد المتكلم (الكواكبي، ٢٠١٧م، ص ٧). ومن هنا يتبين لنا أن هناك مكونات أخرى فاعلة في الخطاب في عملية التخاطب والإفهام، وسعي المخاطب إلى معرفة مقصدية المتكلم، والإرث الثقافي الجامع بينهما.

١-مقام المتكلم:

يسترعي انتباهنا أن ابن نباتة في خطبه هذه يمكن أن يتبوأ أكثر من مقام ، فهو ينطلق في كل خطاب من مقام تواصلي له خصوصيته؛ فخطابه لله عزّ وجل ينطلق من مقام مخصوص، وكذلك خطابه للأمير، أو للجمهور العام ، وكل مقام يحتله يملي عليه شروطًا للتواصل، تنعكس في صفحة الخطاب، وتسعى لتأطير خصوصيته. وهكذا يبرز انغراس المتكلم أي ابن نباتة، وحضوره الفاعل في العملية التواصلية من خلال ما اشتملت عليه الخطب من عبارات تدل على تفاعله الذاتي داخل الخطاب لإثبات براعته، وأنه خطيب مفوّه، ومدح لذاته، وإظهار علو كعبه في انتقاء الألفاظ التي تخدم غرضه من إنشاء خطبته. إن الناظر بعين فاحصة في خطب ابن نباتة يتبين حرصه الشديد على انتقاء مفرداته، فاللفظة الواحدة لها عدة بدائل لغوية، وكونه ينتقي ما يشاء من وجهة نظره فهذا دليل على تدخل الذاتية في خطابه الموجّه للمخاطب، وهذا ظاهرٌ في خطبة يذكر فيها الجهاد، حيث يقول: "... **أيها الناس إلى كم تسمعون الذكر فلا تعون، وإلى كم تُقرعون بالزجر فلا تُقلعون، كأن أسماعكم... وأنتم أولو العقول والأفهام، وأهل الشرائع والأحكام... فسابقوا رحمكم الله إلى الجهاد... وخذوا بعزائم التشمير... ولا تركنوا إلى الجزع... فالجهاد الجهاد... والظفر الظفر... والجنة الجنة... والنار النار... فانصروا الله فإن نصر الله حرزٌ من الهلكات حريز. {ولينصرن الله من ينصره إن الله قوي عزيز}** (الفارقي، د.ت، ص ص ١٨٨-١٩٠).

لئن كانت الخطبة موجهة لعامة المسلمين؛ فإننا نرى بَصر ابن نباتة بمراعاة المقام، إذ هو يطيل ويعيد ويكرر حتى يعمل خطابه في أنفس العامة، ويتحقق غرضه من تكرار استعمال اللفظة بعدة صور كقوله: كم تسمعون فلا تعون، كم تُقرعون فلا تُقلعون، أنتم أولو العقول، والأفهام، وأهل الشرائع، والأحكام. وهذا التكرار للمعنى بعدة ألفاظ له أثره الواضح في وصول فكرته إلى المخاطبين، وانظر إلى التكرار في قوله: فالجهاد الجهاد، والظفر الظفر، والجنة الجنة، والنار النار، ولا ريب أن مقصد الخطبة هو المتحكم في تطور المبنى، وما يرمي إليه الخطيب من مضامين، وهذا ما يفسر اختياره مفرداته، والعناية بألفاظه، والقصدية في تلك البدائل اللغوية، والأساليب البلاغية التي تكتنز بها خطبه، كالأمر في قوله: خذوا بعزائم التشمير، والنهي في قوله : ولا تركنوا إلى الجزع، ولا يخفى على ذي لب توظيف أفعال الكلام في هذه الخطبة وما جرى مجراها، وفي ذلك دليل على حسن توظيف مفرداته، ولعل ما يزيد من فاعلية التواصل؛ ما بين المتكلم والمخاطَبين من قواسم مشتركة في الدين واللغة، والقيم، كل ذلك يؤطره الإدراك الاجتماعي المشترك بين المتكلم والمخاطَبين، وهذا البناء الفني لخُطبه يُلبي أفق انتظار الجمهور الذي يشترك مع الخطيب في البنية الثقافية والنسق المعرفي، ومن هنا وجدنا الصلة الوثيقة بين المبنى والمعنى في كثير من خطب ابن نباتة.

ومن الذاتية في المقام خطبة يذكر فيها الفتنة وينهى عنها؛ إذ يقول: " **أيها الناس: إن الفتنة نارٌ شديد ضِرامُها... واحذروا أن تسلكوا من الفتن سُبُلها، والزموا كلمة التقوى وكونوا أحق بها وأهلها... فقد جعلكم الله بالإسلام إخوانا... وصدق مقاله: "محمدٌ رسول الله والذين معه أشداء على الكفار إلى آخر السورة، وقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم... أمتي كالبنيان يشد بعضه بعضا...** " (الفارقي، د.ت، ص ص١١٢-١١٤). اتخذ ابن نباتة من الوقائع التي جرت في عصره؛ وسيلة للتعبير عن آرائه ومواقفه، فكان رصد الأوضاع السياسية، وقد عصفت الفتنة بالناس، فأنشأ خطبة يحذرهم من الوقوع في الفتنة، ومن تفرق الصف، وشق عصا الطاعة، وقدم أدلة من القرآن والسنة، وهذا داخل في حرية الانتقاء، وتوظيف ما يخدم غرضه من إنشاء الخطبة، فضلاً عن أن هذه الحجج تأتي في إطار إقناع السامعين بوجهة نظره، وهي لزوم إمام المسلمين، والتوحد ونبذ الفرقة، ويبدو أن الخطيب أراد استمالة الناس، وذلك من خلال توظيفه للأحداث الراهنة في عصره، فكأنه يقدم آراءه حول تلك الأخطار المحدقة بهم، وبذلك يضمن تكوين قاعدة جماهيرية تجمع على صحة آرائه، وهي إيديولوجية تدعم توجه الخليفة نحو السيطرة، وبسط نفوذه على الجميع بما يخدم مصالح الأمة. ومن الذاتية ما نجده في خطبة يذكر فيها الموت والوباء يقول:" **أيها الناس أضللنا القلوب فلا دليل عليها مرشد، وأهملنا النفوس... وأثقلنا الظهور... وأعملنا الجوارح...**" (الفارقي، د.ت، ص ٤٦). يتجلى لنا استعمال ضمير الجماعة، ذلك أنه مُخول للتعبير عن آراء المخاطَبين تجاه قضية معينة، ألا وهي تسويف التوبة، وعدم الاكتراث بما أصاب غيرهم من

وباء وموت وفتك. إن حضور ضمير الجمع أمد ابن نباتة بإمكانيات التعبير عن الذات المنغرسة في واقعها المعيش، حتى وإن حاول الخطيب التخفي وراء ضمير الجماعة، واتخاذه منطلقاً من منطلقات الكتابة، وبذلك كشفت الخطبة عن واقع أفراد المجتمع آنذاك، وأحواله من وجهة نظر الخطيب الخاصة، وعلى هذا النحو أصبحت الذاتية منبعثة من وعيه وإدراكه للأشياء.

وغير خافٍ علينا أن تصنيف الخطب، ووضعها في فصول من الذاتية بمكان، ذلك أنه يخضع لرؤية ابن نباتة، ووجهة نظره الخاصة، مما يكشف عن مقصدية تأليف هذه الخطب، وجمعها حسب رؤية الخطيب بعد ذلك بين دفتي كتاب، فهي موجهة إلى الخطباء وعامة المتلقين، فكأنه أراد من وراء ذلك أن تكون أنموذجاً ومثالاً يحتذى للخطباء من بعده، وللمهتمين بالخطابة، زد على ذلك إشارته إلى ما ينبغي للخطيب أن يعمله كقوله: "... **ثم نقول: بارك الله لنا ولكم... وكذلك القول في آخر كل خطبة...**" (الفارقي، د.ت، ص ٦). يتبين أن هذه الخطب موجهة للمتلقي العام، متصلة بالأوضاع التي تُنجز فيها هذه الخطب من حيث المناسبة، فأضحت ملكية مشاعة للجميع، وموجهة لغير قارئ، مما يدل على اهتمام ابن نباتة بالمتلقين عامة. ومن الذاتية إثبات معرفته بالعلوم والفنون المختلفة، وبراعته في البيان كقوله: "...**اللهم فلك الحمد على ما أطلقت به لساني، وأظهرت بنطقه بياني... اللهم فلك الحمد على ما خصصتنا به من معرفة وحدانيتك، وباعدتنا عن قول من جحد بك...**" (الفارقي، د.ت، ص ص٤٤٢-٤٤٥). وفي ذلك دليل على تفوقه في البيان، وإحاطته بأقوال الفلاسفة والملحدين.

٢-مقام المخاطَب:

لا شك أن المتكلم يضع نصب عينيه مخاطباً محدداً؛ ليبني خطابه عليه، ويُضمّنه ما يروم من ورائه لتحقيق هدفه، وغرضه من إنشاء خطابه. ويقتضي ذلك فرضية مؤداها معرفة المتكلم بالمخاطَب، وتكوين صورة ذهنية عنه مستقرة في فكره الواعي بحقيقة ممارسته، ومعرفته لمن يُوجه إليه الخطاب، ومرجعيتهم الثقافية، وهُويتهم الاجتماعية والدينية. ومن هنا حظيت خطب ابن نباتة بقبول واسع أدى إلى استحسانها من الجميع، وهذا ظاهر في قول ابن خلكان؛ إذ تحدث عنه قائلاً : "كان إماماً في علوم الأدب، ورُزق السعادة في خطبه التي وقع الإجماع أنه ما عمل مثلها، وفيها دلالة على غزارة علمه، وجودة قريحته" (ابن خلكان، د.ت، ص ١٦٣).

كل ذلك تفوق ابن نباتة فيه خطيباً، وسعيه الحثيث إلى تجسير الهوة بينه وبين مخاطبيه، وانتمائه إلى مرجعية ثقافية مشتركة معهم، فهي تمتح من القرآن الكريم حججها، وتسوق الأحاديث النبوية في جُل خطبها، ومن شأن ذلك أن يحمل المخاطَبين على الإقناع، والإذعان بمغزاها، والهدف من ورائها، ولعل من مقام المخاطَب تعدد الخطابات داخل الخطاب؛ إذ الخطبة تؤطر لتعددية الأقوال والنصوص، وتتوسل

بتوظيف عدة نصوص؛ للوصول إلى الغاية المرجوة منها في سبيل كسب نفوسهم، واستمالتها والإذعان بفحوى الخطبة ومراميها، يدعم ذلك الإرث الثقافي المشترك بين المتخاطبين، لأنهم بالضرورة يستطيعون التفريق بين الخطابين، أي نص الخطبة الأساس، والأقوال الأخرى المضمّنة الخطاب الأساس. من ذلك قوله: "... **فقدموا رحمكم الله عقد العزائم على الجهاد... فقد قال النبي عليه الصلاة والسلام، ولقوله الإجلال والإعظام، فيما صح من أخباره المجمع عليها: خير الناس رجلٌ ممسك بعنان فرسه في سبيل الله كلما سمع هيعةً طار إليها. فالتشمير التشمير أيها القاعدون. والنفير النفير أيها المجاهدون... وتقرأُ وجاهدوا في الله حق جهاده...**" (الفارقي، د.ت، ص ص ٢٠٦-٢٠٧).

يسعى ابن نباتة في نصّ خطبته إلى إنجاز غايات إصلاحية في المجتمع، وتحقيق مقاصد خطابه النفعي، ذلك أن ارتباط الخطاب بالغايات الإنجازية، أمر محتوم في فكرة المقاصد، يؤكد ذلك اتصاله أي الخطاب بذات باثّة له، محكومة بإطار زماني ومكاني، مؤطرة بما يتصل بالمجتمع من مواضعات اجتماعية، وهو ما يُبرز الخطاب التداولي في خطب ابن نباتة ؛ ذلك أن الخطاب مجموعة من القواعد الموضوعية والتاريخية المعينة دوماً في الزمان والمكان، والتي حددت في فترة زمنية بعينها، وفي نطاق اجتماعي واقتصادي وجغرافي أو لساني مُعطى شروط ممارسة الوظيفة المنطوقية (الزواوي، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ص ٥٣).

وعلى هذا النحو يتضح لنا استدعاء ابن نباتة للأحاديث النبوية التي تشد بناء نص خطبته، وتعزز من دعم مقاصد خطابه؛ لتحقيق الغاية من ورائه، ولا ريب أن المخاطَبين يستطيعون التمييز بين الحديث النبوي وبنية نص الخطبة النثري؛ إذ إنها أي الأحاديث خطاب داخل خطاب وبذلك يظهر البعد التداولي، في خطب ابن نباتة؛ مما يبرهن الصلة الوثيقة بين استدعاء الأحاديث النبوية وحضور المخاطَب في ذهن ابن نباتة، وتوضح الأحاديث فكرة مؤداها الافتراض المسبق القائم على وجود اتفاق مسبق ضمني بين ابن نباتة والمخاطَب عن فحوى خطابه، وهو افتراض فاعل يؤدي دوره التداولي في تأسيس التواصل اللغوي بين المتكلم والمخاطَب. إن هذا التواصل اللغوي بين المتكلم والمخابط يقوم على أساس المعلومات السابقة المشتركة بينهما، وهذا جزء جوهري من السياق، ومن العملية الاتصالية (الصراف، ٢٠١٠، ص ٩).

ويتجلى مقام المخاطَب من خلال ما جاء في هذه الخطبة التي يذكر فيها قدوم الأمير:" ... **إن أظهر نعمة جُللتموها... قدوم مُعزكم بعد الإذلال، ورافعكم بعد الإخمال، ومنقذكم من الفزع، ومؤمنكم بعد الجزع، الباسط فيكم العدل، والمتابع لكم البذل، شهاب الله الثاقب، وحزبه الغالب... وقابض مُهج الأبطال، وفارض نهج الآمال... ذي الوجه الأزهر، والنسب الأطهر**" (الفارقي، د.ت، ص ٢٨٤). يُبرز النص حضور أوصاف الأمير، وهو بلا شك من ذوي المقامات العالية، ولذا وجدنا إسباغ الأوصاف عليه، وإجلاله وتقديره، والثناء عليه، والدعاء له بالنصر والتمكين، وهو بذلك يؤسس لخلق واقع منشود

عن الواقع الفعلي، وهذا ما نجده من مدحه الأمير، والثناء عليه، والإعلاء من شـــأنه. ويبرز مقام المخاطَب من خلال الإحالة إلى جانب تعليمي، يتعلق بأمور الدين والدنيا، بغرض تعليمه وتثقيفه كقوله في خطبة لعيد الفطر: "... **الله أكبر الله أكبر وأطيعوا الله فيما أمركم به من بر الوالدين وصـــلة الأرحام، وعدل النصـــفة في الأحكام، والاســـترجاع عند فجائع الأيام، ووفاء المكاييل والموازين، والعدل في قســـمة المواريث، واللين في معاشـــرة النســـاء، وحســـن الصـــحبة للمماليك والأرقاء**..." (الفارقي، د.ت، ص ٤٠٥).

أراد ابن نباتة تبديل سلوك أفراد المجتمع، ونصحهم وإرشادهم إلى ما فيه صلاح دينهم ودنياهم، وهو يتوجه بخطبته نحو المخاطَب العام في كل زمان ومكان؛ من أجل الابتعاد عن مهاوي الردى، وسلوك السبل المنجية للفوز بالجنة والنجاة من النار، فكأن ابن نباتة أراد أن يقف بالمخاطَب والخطباء من بعده على مقاصده الحقيقية من تأليف هذه الخطب الصالحة للاستعمال والتداول على مر العصور، لقد سعى ابن نباتة إلى توجيه خطبته وجهة تخدم الغرض من إنشائها، وهي تمتح من الواقع المعيش، وما تسرب إلى بعض النفوس من ضعف إيمان، وهشاشة ذمة، وسوء معاملة غيرهم، وتبدل في الأخلاق، وهكذا سعى الخطيب إلى ربط خطبته بالغايات الإنجازية التي يرومها.

ثانياً: مقومات خطب ابن نباتة :

لئن كنا قد أقررنا بالقيمة الأدبية لخطب ابن نباتة الفارقي، ورأينا كيف تجلت مضامينها الأدبية فإننا هنا سوف نهتم بجانبها الذي يضيء لنا حركة النقد وطرائق انبنائها ضمن نسيجها الأدبي، ولعل هذا الجانب سينقلنا إلى طريقة في البحث مخصوصة، وهي طريقة تقوم على قراءة المدونة قراءة أجناسية تكشف عن ملامحها وتدرجها ضمن حرم الأدبية. وللوصول إلى ذلك علينا أن نراعي قراءة المدونة وفق مقومات ثلاث هي: المقوم السردي، والمقوم البلاغي، والمقوم الدلالي.

١- المقوم السردي:

المقوم الســردي مصــطلح ســيميائي أقره غريماس (Gremas,1966)، وهو يندرج ضــمن دراســة منحنى مستوى السطح، ويسهم في تنظيم الحالات والتحولات ويربط بين علاقاتها تتابعاً وتسلسلاً (القاضي و آخرون، ٢٠١٠م، ص ٢١٧). وحين ننظر في المقوم الســـردي لأي نص أدبي، فإننا نهتم بوصـــف الاختلافات التي تكتشف من خلال تطور حركة السرد، والأحداث والشخصيات، ومن هنا فإن دراسة المقوم السردي في خطب ابن نباتة تنقلنا إلى بعض الأحداث السياسية والاجتماعية، ونواتج أنظمة الدولة في تلك الفترة، ومواقف السلطان، يقول ابن نباتة في إحدى خطبه :" **وكانت موافاتهم يوم الاثنين لعشرٍ خلون من ذي القعدة سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة، وذلك لليلةٍ بقيت من تشرين الآخر وعدتهم ثمانية**

آلاف فارسٍ وراجل في أحسن ما يكون من العدة والجهازات والبنود التي كان فيها ما طوله خمسون ذراعا في الهواء والبخت والعدد التي لم يُر مثلها... نجا فتى الأمير سيف الدولة في أربعة آلاف فارسٍ وراجل في أعظم ما يكون من العدة وذلك على فاقةٍ شديدة من أهل ديار بكر إلى الغوث وإشفاقٍ وخوف من العدو خذله الله" (الفارقي، د.ت، ص ٢٠٢).

ولعل وجه الأدبية يتجلى في هذا المقطع السردي الذي أخذت تنظم فيه أغراض الكتابة عند ابن نباته، فقد جعل القارئ يتعرف أكثر على أحداث استباقية قبل وقوع تلك المعركة ضمن إطار النص الحاضن وهو الخطبة، وهكذا نجد أنفسنا أمام نصين متداخلين، الأول نص خارجي هو النص الأصل/ الخطبة، والثاني نصٌ داخلي هو السرد، لذا فإن الطابع التداولي للمقوم السردي يتجلى على الخصوص متى استحضر ابن نباتة أحداثاً سياسية أو اجتماعية، وبذلك يغدو السرد خطاباً منطوقاً موجهاً إلى المتلقي؛ لإفهامه وإعلامه بأمر مخصوص مرتبط بالغرض الذي أنشئت حوله الخطبة، ومن هنا يبدو لنا النظر في طبيعة السرد واندراجه ضمن إطار الخطبة من قِبل الخطيب من علامات مراعاة مقامات التخاطب، وحثّ الناس على القيمة العظمى للجهاد والدفاع عن بلاد المسلمين، فالسرد مقوم مهم في صناعة المادة الحكائية للخطب، ولبنة صلبة لبناء الأدبية، وعليه فإن لغة السرد في هذه الخطبة وما جرى مجراها تتوسل التقرير سبيلاً إلى نقل حقيقة واقعية، يقول ابن نباتة في خطبة أخرى يصف فيها لحظات قبضة روح الرسول صلى الله عليه وسلم:"... **ولقد أتاه في مثل شهركم هذا من رسل ربّه الكرام، الموكلون بقبضِ نفوس الأنام، فجدوا بروحه الزكية لينقلوها وعالجوها ليرحلوها إلى رحمةٍ ورضوان، وخيرات حسان، فاشتدّ لذلك كربُه وأنينُه، وترادفَ قلقُه وحنينُه، واختلفت بالانقباضِ والانبساطِ شمالُه ويمينُه، وعرِق لهولِ مصرعه جبينه، فبكى لمنظره من أبصره، وأنتحب لمصرعه من حضره"** (الفارقي، د.ت، ص ١٣٦).

إن هذا السرد المبثوث في نصوص الخطبة يعدل بها رأي الخطبة عن كونها بنية مغلقة وينفتح بها على خطاب ذي خواص متغايرة وعناصر متنافرة أو متقاربة، حتى ينتقل بها إلى عالم الإبداع، لكن كيف أدى السرد مهمته في الإمتاع أو الإقناع؟ وكيف استجابت الخطبة إلى نداء السرد ؟ لا شك في أن لكل نص استجابة لهذا النداء، كل ما يعنينا في هذه الدراسة ليست الاستجابة الأسلوبية، وإنما الاستجابة النوعية المشتركة بين السرد والخطبة، التي تمنح الخطبة سمة أجناسية، وعليه فإن حضور السرد ضمن خطب ابن نباتة يمكن أن يهز معمار النص فيصبح الاشتغال بمتن الخطبة مجالاً لبيان مدى تحقق النص للسرد، والذي تجلى فيه المعمار النصي للخطبة. وهكذا يمكن اعتبار السرد استطراداً وسوقاً خاصاً للكلام، وهو "سوق على وجه يلزم منه كلام آخر، غير مقصود بالذات، بل بالعرض" (الجرجاني، ١٩٨٣م) ومن هنا فإن حضور السرد بوصفه استطراداً نصياً ووسيلة تنشط الخطبة، وإذا الخطبة تتنحى عن مكانها وتتركه لشذرات

عدة من السرد، حتى يكاد المتلقي ينسى ما قيل أوله في الخطبة، ولعل أمر الاستطراد السردي هذا يصدق فيه مذهب كونديدرا الذي يعتبر أن " الاستطراد لا يضعف التأليف، بل يعززه" (كونديدرا، ٢٠٠١م، ص ٨٧). وهكذا فإن السرد المضمن لتلك الخطب يؤكد حضور المؤلف وتدخله باستمرار، ومنادياً بأمرين: الأول حقيقة السرد وواقعيته، والثاني الأدبية التي كرّستها الخطبة، والحضور الأجناسي لها، يقول ابن نباتة في خطبة أخرى تسمى بالخطبة الصوفية:"... **تسمع لقلوبهم من خوف ما حولهم وجيباً، ويبدي لهم اشتياقهم إليه زفيراً ونحيبا، قد جعلوا ذكره لهم من الدنيا نصيباً، ولم يجدوا لدائهم سواهُ طبيبا، رمقوا العواقب بالبصائر البصيرة، وخرقوا الغياهب بالأفكار المنيرة، وجنّبوا الجنوب مِهادَ الفُرُش الوثيرة، وغسلوا الذنوب بفيض الأدمع الغزيرة، وعَقَلوا القلوب بعُقل الصبر المريرة، وآثروا المحبوب بنفائس الأنفُسِ الأثيرة، وصححوا معاملة عالمِ الإعلان والسريرة، فأعاضهم قُرر الأعين القريرة...**" (الفارقي، د.ت، ص ٩٩).

ولعل هذا المقطع السردي يقودنا إلى أن السرد قد يكون عنصراً منظماً لعالم الخطبة، وبهذا التصرف الذي يعمد إليه ابن نباتة تغدو الخطبة تقييداً لما تمليه الذاكرة من أحداث وتصورات، وتجربة صادقة تجسّد قدرة الكاتب اللغوية، وبراعته في الإلقاء، وتكشف عن أفكاره ورغباته، ومن هنا فإن السرد في خطب ابن نباتة يتحقق من خلال مهام متنوعة، ويتحول إلى طور الخطاب المنطوق الذي يمكن أن يكون موجهاً إلى جملة من المتلقين، لكن هل يجوز لنا أن نقرأ خطب ابن نباتة قراءة أخرى قوامها أن الخطبة ليست معتبرة من جهة علاقتها بالنسق السردي؛ بل معتبرة من جهة علاقتها بالغرض والمقام؟ حتماً سوف تكون الإجابة بالنفي؛ لأن قراءة الخطاب الأدبي عموماً متصلة بالظروف الحافة به، التي تدفع نحو القراءة وتدفع نحو الإقبال عليها، ولئن اعتبرنا السرد حاضراً في خطب ابن نباتة، وهو مكون مهم من مكونات خطابها العام، فإنه في الغالب يأتي متقطعاً يقدم لنا شيئاً عن أحداث متوالية يريدها الخطيب، ولا يفصل فيها كثيراً ، يقول ابن نباتة في خطبة له عن تفضل الله على عباده بعلم الغيب:" **عباد الله كيف رأيتم من الله حسن الإجابة، حين أخلصتم إليه تحقيق الأنابة؟ أم كيف وجدتم غِب الاعتصام بحبله، وعاقبة التعرض لفضله؟ أَوَ لَم تجدوه للدعاء سامعا، وبموفور العطاء واسعا؟ أَوَ لم تكن الأرضُ هامدة، حين كانت العيون جامدة؟ حتى إذا وجلت القلوبُ فخشعت، وهملت العيونُ فدمعت، واشرأَبّت النفوسُ فطمعت، واستكانت الخليقة فخضعت، وكان الله عز جلاله منتجع الطالب، ومَفزعَ اللهيف الهارب، أجراكم من إحسانه على المعهود، ومدّ سُرداق المعروفِ والجود، وفتح لكم من نعمتِه أبوابا، وأنشأ لكم من رحمته سحاباً ، كوّنها في غيب علمه وأتقنها بلطفه وحكمه، وأمرها فارتفعت مستقلّة، ونشرها فاتسعت مُظلِة، وساقها بالرياح سوقاً حثيثاً، وأوقرها من البركة غيثا مُغيثا، حتى إذا عمّت الآفاقَ طُولا وعرضاً، وركَضها الملكُ**

الموكلُ بها ركضا، وتمخّضت تمخّض الحامل، وكادت تنالها بسطةُ المتناول، أنطق الله بالبشارة رَعْدَها، وحقق بالنضارة وعدها ... وأوسع في كل ربوةٍ وقرارةٍ رِفدَها، وأصْلت في أرجائِها سيوفَ البرق، وأسبل من خِلالها سِجالَ الودق" (الفارقي، د.ت، ص ص ٢٦٨-٢٧٠).

إن هذا المقطع السردي الذي يراوح فيه ابن نباتة بين السرد والوصف، ينقلنا إلى الجانب الذي يلح عليه رولان بارت في حديثه عن رؤية القاص؛ فهو يرى :" إشارة القاص إلى شيء ما صورة عابرة في الحكي لابد أن يكون لها معنى فيما سيأتي من الحكي، وينبغي دائماً أن ننتظر أن يكون لذلك الشيء دورٌ فيما يأتي من بقية الحكي" (لحمداني، ٢٠١٥م، ص ٢٩). وهكذا نجد ابن نباتة من خلال هذا السرد، يفتح مجال الخطبة لينقلنا من انفتاح الحياة بوقائعها العامة وملذاتها، إلى انغلاق خاص قصده تهذيبي يأخذ المتلقي إلى إدراك قدرة الخالق، وتفضله على خلقه، ويعمد في ذلك إلى السرد ذي المعاني المكتنزة بفضائل الله عز وجل على خلقه، وعليه فإن حضور هذا المقطع السردي يجعل المتلقي يصغي أكثر بحثاً عن توازن ممكن بين حياته اللاهية، وما يمكن أن يلحقه من إيجابيات متخفية خلف السرد؛ فما يلقاه السامع من فقرات حديثة عليه تجعل للخطيب قوة إقناعية تحيل على الغيب بجملة دلالاتها، وعلى هذا النحو جاء النص مراوحاً بين السرد والوصف والخطبة، وتجلت وضعية الخطيب باعتباره راوياً – من خلال وضعية ثانية هي وضعية المشاركة الحوارية ليكون الحدث/ علم الغيب بين ملقٍ ومتلقٍ، ويبتعد عن مركزية الذات، ولعل هذا الجانب أتاح لابن نباتة التحرك داخل السرد المرجعي، وتأثيث عالمه الحكائي، وتسجيل الوقائع في هذه الخطبة أو تلك؛ خاصة إذا ما علمنا أن السرد جاء مصطبغاً بألوان من المجاز والإيحاء، وهي سمة غالبة عليه في جميع الخطابات" (الجوة، ٢٠١٩م، ص ٢٥٨).

إن السرد في خطب ابن نباته يقوم على أنساق منغرسة في أساليب الخطبة، ومتجذرة في ثقافة الخطيب نفسه وفي طرائق صياغية للمحتوى. ولعل هذا الجانب يحول الخطبة أحياناً إلى حكاية تنهض على أساس سردي محوري. يقول ابن نباتة، متحدثاً عن هلاك الدمستق:" **وانظروا إلى صنيع الله بعدوكم طاغية الروم، الذي ضلّت في انتظام أحواله ثواقبُ الأحلام والفهوم، حيث دوّخ الأقطار، وفتح الأمصار، وأخرب الديار، وجاوز في بغيه وعتوّه المقدار، حتى إذا ارتعدت منه... وخامت عنه جيوشُ الإقدام وطاشت لفَرَقه عقولُ الأنام، وتقاعست عن الفتكِ به صروفُ الليالي والأيام، ووقع اليأسُ من دفعه، لطف اللهُ الكريمُ لكم بلطيفِ صنعه، وأتاه من مأمنه، وقتله بأنصاره في وطنه، منّةً من الله...**" (الفارقي، د.ت، ص ص٢٣٩-٢٤٠).

جعل ابن نباتة من هذا السرد غاية الخطبة ورهانها؛ فسعى إلى الإحاطة بأن الدمستق رغم جبروته قد هلك؛ فالسرد هنا إذن وحده يشخص الموقف، ويضيء وجهاً مشرقاً للخطبة، وتجري أحداثه داخل الزمن

ودالة على الفعل، وإذا كانت الذاتية حاضـــرة في هذا المقطع من خلال بعض العبارات، ثواقب الأحلام، دوخ الأقطار، ارتعدت منه؛ فإن هذا ضرب من الرمزية والإيحاء لحظة السرد عن نقل الموقف الذاتي للمتكلم، وإحداث أثر في المتلقي. وهكذا يتخذ الســرد داخل الخطب لحظة الســرد عن نقل الموقف الذاتي للمتكلم، وإحداث أثر في المتلقي، وهكذا يتخذ الســـرد داخل الخطب إيقاعاً مميزاً ؛ فلا تكون مادته أفعال الشـخصـيات وتقدم الأحداث، وإنما في اسـتطرادات الخطيب/ المتكلم، وتأملاته في حالتها الثابتة والمتغيرة بين تجربة وأخرى، وبين حدث أو موضـوع وآخر، فالسـرد إذن يخفف من ثقل الخطبة وينوع من أغراضـها وموضـوعاتها، ويعدد من وضـعيات التخاطب ومقاماتها فيها؛ بل إنه يرسم حالات الذات/المتكلم كما تعي الأحداث وتدركها.

٢- المقوم البلاغي:

لقد تحولت البلاغة إلى علم مسـتقل بذاته، وصـارت تنزع إلى أن تصـبح علماً شـاملاً لجميع المجتمعات وكافة الظروف والمقامات، فهي لم تعد تُعنى بدراسـة أسـرار الخطاب فحسـب، وإنما أضـحت تهتم بدراسـة خصـوصـياته، أي أنها "تخلت عن نزعتها المعيارية المتمثلة في فرض القواعد لتهتم برصـد الوقائع" (بارت، ١٩٩٤، ص ٨).

ولعلنا عند قراءة خطب ابن نباتة نهتم أولاً بحضـــور الصـــورة في خطابه العام، فقد عمد الخطيب إلى تصوير موضوعاته تصويراً تداولياً ينهض على الإقناع وإثارة انتباه المتلقي؛ خاصة إذا ما علمنا أن الأساليب البلاغية آلية استدلالية في طبيعة الخطاب البلاغي القديم (الرقبي، ٢٠١٨م، ص ٩٥).

وهكذا اعتنى ابن نباتة بالجانب البلاغي وعمد إلى التصـــوير والخيال، ولعل هذه سمة من سمات أدبية الخطبة، يقول:" **بينا يُرى المرء مسروراً بشبابه، مغروراً بإعجابه، مغموراً بسعة اكتسابه... إذ أسعرت فيهِ الأســـقامُ شـــهابها؛ وكدَّرتْ له الأيامُ شـــرابها، وحوَّمت عليهِ المنيةُ عُقابَها، وأعلقت بهِ ظُفْرَها ونابَها**" (الفارقي، د.ت، ص ٩٥). فالخطيب هنا يدرج الاسـتعارة لأجل تمثيل الأشـياء التي يتحدث عنها، وهي الأســـقام، وفناء الدنيا والموت، تمثيلاً لتمثيل آخر مقولاً أو مفكراً فيه، فهي وصـــفية، ومن هنا فإن هذه الصـــورة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالمقام التخاطبي الذي ينجز فيه القول؛ فالخطبة غالباً ما تكون مجالاً للوعظ والتذكير بالآخرة؛ لذا كان من الضرورة أن يكون المقوم البلاغي حاضراً وخادماً لغرض الخطبة وموضوعها، يربط بين مكوناتها المتباعدة أو المتقاربة، وينقل لنا معارف وموضـــوعات ويقربها بين العوالم الممكنة والمعقولة (سليم، ٢٠٠١م، ص ١٦٢).

وهكذا يستطيع ابن نباتة أن يقيم إبداعه وينشئ خطبه وفق نسق أدبي مؤثر، يقول في خطبة له في ذكر النار:" **فأين الفرار إذا لفح هجيرها، واضـــطرم ســـعيرها، واقمطرّ دمقها وزمهريرها، وســـعت آفاقها،**

ونفخت حيّاتها، وصـعِدت ذوائبها، وعقّدت عقاربها، وتفرقع شـرارها، وارتفع غبارها، وقطَّب خُزَّانها، وكلح أعوانها" (الفارقي، د.ت، ص ٤٣٢).

يتضمن هذا المقطع استعارة بلاغية، وهي شكل من أشكال العدول التي تُحدثه الأعراف الخطابية؛ حتى تُنشط الأسلوب، وتجنبه التشبع والاهتراء، وتنأى به عن التقليد والصوغ على منوال سابق، والاستعارة من الوجهة التداولية يمكن عدّها عملاً حجاجياً يعقده المتكلم مع المتلقي، وهكذا يصـبح المقوم البلاغي هو روح النص، أو هو نقل لروح المعاني والدلالات، وأن مقتضاه ليس في الكلمة/ استعارة أو تشبيه، وإنما في التركيب والتأليف؛ لأن الكلام متعلق بعضه ببعض (الرقبي، ٢٠١٨م، ص ١١٨).

ولا غرابة والحالة تلك أن يكون هذا المقوم من الآليات التي تتماسـك بها الخطبة، وتتكاثر بها الألفاظ المؤثرة. يقول ابن نباتة:" **أيها الناس: أغفلتم جلاء القلوب بمداوس الأفكار حتى جربت. أهملتم بناء الأعمال في تقاعس الأعمار حتى خربت، وأرسـلتم ذلل الأهواء في حلبة الشـهوات حتى صـعبت، وأطلتم آمال النفوس في ما أعجزها إدراكه حتى عطِبت، واضـطجعتم في مهاد الغفلة حتى استحوذت عليكم فغلبت"** (الفارقي، د.ت، ص ٢٨٦).

تُعد هذه الصـور البلاغية وبناها النصـية من أبلغ وجوه تقييد الخطبة بالسـياق التداولي، الذي يقتضـي متكلماً ومستمعاً وأنساقهما المعرفية. ولعل هذا التقييد بالسياق التداولي هو الذي يجعل الاستعارات والمعاني ذات دلالة متداخلة في سياق تخاطبي؛ بوصفهما نسقاً معرفياً مشتركاً بين المتكلم والمتلقي، فالمفهوم البلاغي لا يتجلَّى لنا إلا من خلال السـياق التداولي، واسـتدراج المتلقي في عملية الاسـتدلال والتأويل، واللافت في مقطع ابن نباتة في هذه الخطبة أنه يضع البلاغة سواء كانت استعارة أم تمثيلًا، بوصفهما طرائق توصل إلى توليد المعاني والبحث في أعماق المضمون، فمفاد الخطبة هو تنبيه المتلقي إلى تدارك حياته، وعدم الانغماس في ملذاتها، والتفطّن إلى مصـيره، وأن دار البقاء يكمن في الآخرة. وقد يقصـد ابن نباتة التشـبيه في بعض خطبه؛ بُغية المقارنة والمفاضـلة أو الترتيب، ولكنه أحياناً يأخذ منحى إقناعياً يقول في إحدى خطبه مصـوراً حال الإنسان بعد دفنه:" **فغودرت في الفلاةِ شلواً مقبورا، وطال عهدك فأصبحت مجفواً مهجورا، تأكل الأرض لحمك كما أكلت من ثمارها، وتشـرب دمك كما شـربت من أنهارها"** (الفارقي، د.ت، ص ص٣٠-٣١).

وهكذا نجده يشـبه أكل الأرض وهي غير عاقل بأكل الإنسـان وهو عاقل، لكن الدلالة تكمن في وجه الشـبه وهو الزوال، والفناء، فالتشـاكل في هذا المقطع جاء بين قطبين دلاليين مختلفين، فلا يمكن أن يقبل السامع مضمون التشبيه إذا لم يكن مقتنعاً بأن التقريب بين أكل الأرض اللحم، وأكل الإنسان الثمار مالم يكن ثمت تعاقدٌ ثقافي بين طرفي المتكلم والمتلقي، يقول في خطبة أخرى:" **إن الدنيا محال، يقتضـيه زوال،**

يقتفيه مآل، يحتذيه وبال، أوقاتها سهامٌ أنتم أغراضها، وغاياتها حمامٌ مفعمةٌ لكم حياضها، وعداتها بروقٌ مخلِفٌ إيماضُها" (الفارقي، د.ت، ص ٢٦).

وإذا كان هذا الجانب البلاغي في هذا المقطع هدفه تزويد المتلقي بجملة من الأدوات التي تقرّب المعنى إليه، فمعنى هذا أن الغاية تعليمية إخبارية ونفعية، تسعى إلى غاية أخرى هي إنجاز وظيفة إقناعية داخل الخطاب؛ خاصة إذا أدركنا أن المزية في البلاغة هي إثبات المعنى في النفوس (الجرجاني، ٢٠٠٤م، ص ٧١).

وهكذا فإن التشبيه في خطب ابن نباتة هدفه إثبات معاني الخطبة؛ بالنظر إلى أن الغرض الذي يقصده المتكلم، ليس في اللفظ المنطوق فحسب؛ ولكنه في معنى اللفظ الذي استدل به المتكلم على المعاني. ومما زاد من تجليات المقوم البلاغي في خطب ابن نباتة جنوحه إلى مظاهر الحجاج اللغوي الذي يهدف إلى تنبيه المخاطب إلى أمر مخصوص، وإقناعه به أو إقصائه وصرفه عنه، فالخطب يمكن أن تتحول إلى خطاب حجاجي يعلو فيه صوت المتكلم حاثاً ومحذراً ، يقول ابن نباتة في إحدى خطبه:" **أيها الناس: إن الله أيَّه بكم فهل أنتم سامعون؟ وندبكم إلى طاعته، فهل أنتم إليها مسارعون، وزجركم عن معصيته فهل أنتم عنها راجعون، وساومكم بنفوسكم فهل لها أنتم بائعون، وجعل أثمانها جنّته فهل أنتم إليها نازعون، وأنبت لكم من الحبّة سبعمائةٍ فهل أنتم لها زارعون، وأوعد من خالفه عذاب جهنم فما أنتم صانعون، وهو القائل سبحانه:{يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ... الآيتين}. ألا وإن الجهاد كنزٌ وفّر الله منه أقسامكم، وحرزٌ طهّر الله به أجسامكم، وعزٌ أظهر الله به إسلامكم، فإن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم، فانفروا رحمكم الله جميعاً وثبات، وشُنّوا على العدو الغارات، وتمسكوا بعصَمِ الإقدام، ومعاقل الثبات، وأخلصوا في جهاد عدوكم حقائق النيات"** (الفارقي، د.ت، ص ص ١٨٢-١٨٣).

إن تواتر مثل هذه الصيغ التعبيرية من قبيل: إن الله أيّه بكم/ وندبكم/ وزجركم/ وأنبت لكم من الحبة...، يحمل قدراً غير قليل من انفعال المتكلم، ولكنها لا تقل قيمة في تحريك المتلقي، واستدراجه نحو الاستجابة والاستعداد والإخلاص في الجهاد. ولعل توسل ابن نباتة بالأسلوب الإنشائي كان غاية لإثبات مقاصده التداولية الحجاجية، ذلك أن السؤال هو إحدى أدوات الحجاج الفاعلة، والناجعة في الخطاب، يقول:" **أفضمان الله يُخفر. أم نعم الله تُكفر، أم يد الله عن أعدائه تقصر. أم الوفاءُ بما وعد الله عليه يعسرُ. مالكم لا تدبرون القرآن... أتظنون أنه يخذُلكم وأنتم له ناصرون. أم تتوهمون أنه يُسلمكم وأنتم في سبيله صابرون"** (الفارقي، د.ت، ص ١٩٢) لا شك أن من مصلحة الخطاب الحجاجي أن يُقوّي طرحه بالاعتماد على الأساليب البلاغية والبيانية التي تُظهر المعنى بطريقة أجلى وأوقع في النفس (الحباشة، ٢٠٠٨م، ص ٥٠).

يهدف ابن نباتة من وراء سوق تلك الأسئلة إلى غاية إقناعية وليست جمالية فحسب، ذلك أن سياق الخطبة يتطلب من المخاطَبين ذهنياً التجاوب مع المتكلم، وهو ما يحقق هدفاً تداولياً؛ ألا وهو الإقناع بنجاعة الفكرة التي أسهمت تلك الأسئلة بإذعان المتلقين بها، ولا ريب أن الغاية التداولية في المثال السابق تسعى إلى فعل إنجازي فحواه الحض على الجهاد، ونصرة الإسلام، وقد أسهم الاستفهام الحجاجي بتأويل المتلقين، وإثارتهم للتفكر فيما طرحه عليهم ابن نباتة؛ إذ توسل بمقامية الخطاب لاستثمار المعاني الضمنية، التي تحملها بنية الأسئلة السابقة، لما لها من أثر عظيم في إقناع المتلقين من خلال الاستمالة والتأثير عليهم. ولئن كان الهاجس الأخلاقي شاغلاً ابن نباتة، فإنه انبرى إلى حث الناس على فعل الخيرات، وترك المنكرات، ولا غرابة في ذلك لأن خطبه نفعية، تدور حول الاحتفاء بنشر الفضيلة، وتهذيب النفوس، وبث القيم الأخلاقية، وتعهدها في نفوس المتلقين بالرعاية والاهتمام، وبذلك يتأتى لنا حُسن توظيف الآيات القرآنية التي تخدم غرض الخطبة، فهو انتقاء مقصود لبلوغ غايات معينة. فالقرآن يسمو بالإنسان للارتقاء الأخلاقي المنشود، ويضع له الخطة التربوية لبناء المجتمع الفاضل (حلمي، ٢٠٠٤، ص١١٦).

ولا غرابة إذن في اتكاء ابن نباتة في خطبه على القرآن الكريم، والأحاديث النبوية، فهما عماد خطبه، وما توظيفهما إلا دلالة على وعيه بممارسته الإبداعية، من ذلك ما جاء في خطبة له في الموت وذم الدنيا، يقول:" **فأين بك أيها الراسب في غمرِ تلك الأهاويل، عند التماس الخلاص وتعذّر السبيل... عند دعاء أهل الخسران بالويل والعويل، هنالك يقيل المجرمون شر مقيل، {وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل إلى مرد من سبيل}**" (الفارقي، د.ت، ص ١٢١).

يأتي هذا النص في إطار طائفة من التوجيهات التي أراد بثها للمخاطَبين، لتحقيق مقصدية فاعلة من وراء أقواله. ذلك أن المتكلم مع تلفظه بالفعل الكلامي، وتحديده قوة إنجازية، مارس ضرباً من التأثير بفعل ثالث هو التسبب في نشوء آثار في المشاعر والفكر (صحراوي، ٢٠١١م، ص ٥٣). وفي سياق آخر يبرز حرص ابن نباتة على استثمار آليات التواصل الإقناعي، وهو من البلاغة بمكان، ذلك أنه لا يُصدر أحكامه جزافاً دون دعمها بالقرائن التي يعضدها؛ تذرعه بالطرائق الاتصالية التي تُلم بشعث العناصر المتباينة في الخطاب، وهذا ظاهر في إكثاره من أساليب الشرط الجامعة بين السبب والنتيجة، بالاستناد إلى الواقع. ذلك أن الواقع أساس البناء، وقاعدة التقويم (الشبعان، ٢٠١٠م، ص ١٤٩)، ونجد ذلك في قوله:" ... **ومن تكبر على الله وضعه، ومن تواضع لله رفعه، ومن كان مع الله كان الله معه، ومن زرع التقوى حَمِد عند الحصادِ ما زرعه...**" (الفارقي، د.ت، ص ٢٤٨). فابن نباتة يُصدر أحكامه، ويدلل على صحتها من خلال بصره بالآيات القرآنية الدالة على أن المتكبر يحط الله منزلته، وليس أدل من قصة قارون، وكيف خسف الله به الأرض، فالأفعال: تكبر، تواضع، زرع، تحمل قوة إنجازية، تدل على طرح سلوك الكبر ومقته، واستبداله

بالتواضع؛ لينال العبد مكانة سامقة عند خالقه، وجواب الشرط الذي نجده في قوله: وضعه، رفعه، حصد، هي أحكام منطقية مستمدة من الواقع بقرينة المقام، وفي المقابل جاء الفعلان الكلاميان، رفعه، حصد، حاملَينِ قوة إنجازية تدل على نتيجة محتومة لمن يتواضع لله، ولمن يرزع التقوى، وهذا التوظيف التداولي للفعل في واقعه الاستعمالي، يُبرز التلازم بين الفعل والنتيجة، مما يُسهم في نجاعة الخطاب، وتأثر المتلقين بمضمونه والتسليم بمقتضاه. إن أدوات الشرط من أظهر الروابط الحجاجية، التي تعمل على إيجاد صلة بين الحجة والنتيجة، فتجعل العلاقة بينهما قائمة على الاقتضاء والتلازم (عوادي، ٢٠١٨م، ص ١١٣).

ولا ريب أن الهاجس الأخلاقي لابن نباتة، أملى عليه أن يوظف كل ما من شأنه أن يُسهم في تسامي النفوس عن الكبر، والتواضع، لتتصالح النفس مع ذاتها، وتفوز بمرضاة بارئها، زد على ذلك بنية القول السابق تُفصح عن مقابلة بين موقفين تداوليين متناقضين وفي سلوك الأفراد، وهو ما يهدف الخطيب إلى تقويمه وتعديله. ويرتبط تعديل سلوك الفرد أو تغييره، بضرورة تشغيل الاستراتيجية الخطابية الملائمة، التي تضمن دفعة إلى أسلوب مغاير للاعتقاد والإدراك (علي، ٢٠١١م، ص ٥٥).

وتأتي الصورة الفنية بوصفها جزءاً لا يتجزأ من المقوم البلاغي؛ إذ إنها عنصر أساس من عناصر الممارسة الإبداعية الواعية. وهي أشد العناصر المحسوسة تأثيراً في النفس، وأقدرها على تثبيت الفكرة والإحساس بها (الساعي، ١٩٨٤م، ص٤٤).

لقد تفطن ابن نباتة في صوره إلى أهمية الاستعارة في خطبه، لأنها أعلى مقاماً من التشبيه، وأدعى إلى محاولة تغيير الموقف الفكري، وبالتالي يسهل تأثيرها في سلوك المخاطَبين، يقول ابن نباتة في معرض حديثه عن الدنيا وذمها:" **من ذا وثقَ بها فلم تخنه. أم من ذا اعتزّ بها فلم تُهنه، بقاؤها معدوم، وفناؤها محتوم، وسائلها محروم، ونائلها مسموم**" (الفارقي، د.ت، ص ٤٤). يحمل هذا الضرب من التصوير البلاغي وظائف تداولية، من شأنها التأثير في قناعة المخاطبين، ولا شك أن الاستفهام يحمل طاقة إنجازية، مدارها المقصدية، ذلك أن الأسئلة تُفضي إلى إثارة صورة الدنيا ووضاعتها في نظر من تعلق قلبه بالآخرة، ناهيك عن توظيف السجع في نهاية الجمل، وما يضفيه من قيم صوتية، تجذب انتباه المخاطبين، وتوقع الأثر فيهم. إن السجع معلم من معالم البلاغة العربية يرفع قيمة الكلام ويجعله أكثر حسناً وتأثيراً في النفس (طبق، ١٩٩٣م، ص ٢٧٠).

وأُشير إلى الطباق بين كلمتي: بقاؤها وفناؤها، وسائلها ونائلها، وما يحدثه من بُعد تداولي أدعى إلى تغيير زاوية النظر، واستمالة المخاطَبين إلى ما يرومه المتكلم من مقصدية؛ تُحذر من الاغترار بالدنيا والركون إليها، وعلى هذا النحو أدى الطباق وظيفة تداولية إزاء وظيفته الجمالية، فضلاً عن قيمته الحجاجية في وضوح المعنى بتضاد البنية. زد على ذلك حضور الجناس غير التام في قوله: تخنه، تهنه، محتوم، محروم، وهذا الجناس يكاد يكون سمة ملازمة في جُل خطب ابن نباتة، وهو سمة صوتية تجذب المخاطبين لما يُطرح عليهم،

وتزيد من نجاعة نصّه الخطابي. ولعل من تمام بلاغتها أن شاع ذكرها بين الناس، وجدّ طلبها، مما أسهم في تعدد تلقيها، وما تعرضت له تلك الخطب من مدح وتقريظ. وعلى هذا الأساس يجب الإقرار بوجود مقوم بلاغي يُفرز لنا خطاباً حجاجياً يجد عناصره الأساسية في المعاني البلاغية؛ بوصفها أدوات إقناعية وبرهانية. يقول ابن نباتة :"**واعلموا أنه لا يصلح الجهاد بغير اجتهاد، كما لا يصلح السفر بغير زاد، فقدموا مجاهدة القلوب قبل مشاهدة الحروب، ومغالبة الأهواء قبل محاربة الأعداء، وبادروا بإصلاح السرائر ، فإنها من أنفس العدد والذخائر، وليدفع القاعدون عن المجاهدين بالدعاء، ومن لم يستطع منكم سبيلاً إلى اللقاء، فاعتاضوا من حياة لابد من فنائها، بالحياة التي لا ريب في بقائها، وكونوا ممن أطاع الله وشمّر في مرضاته، وسابقوا بالجهاد إلى تملك جناته، فإن للجنة باباً حدوده تطهير الأعمال، وتشييده إنفاق الأموال، وساحته زحف الرجال إلى الرجال**" (الفارقي، د.ت، ص ص ١٨٣-١٨٤).

إن نزعة المتكلم إلى المجادلة قد تتجاوز حدود مخاطبة السامع بالدليل والبرهان إلى افتراض حوار إقناعي آخر مع متلقٍ أو مخاطب متجدد، فابن نباتة في هذه الخطبة يرى أن خطابه هذا لا يقف عند حدود السامعين، وإنما يمكن أن يكون صالحاً للأجيال القادمة، ولعل هذا وجه من وجوه تجليات المقوم البلاغي، وهو التأسيس على الإقناع، وكشف واقع الأمة الإسلامية، ومواطن ضعفها، وعوامل قوتها. ومن هنا فإن هذه الوضعية التي افترضناها؛ بوصفها سمة مخصوصة للخطبة، تهيئ الخطاب لقراءة أخرى ولو بعد حين، وتجعله صالحاً لأحداث متجددة، وعليه فإن هذه العلاقات النصية المختلفة المعجمية والتركيبة، تتواتر تواتراً كثيفاً في خطب ابن نباتة، ولعل هذا يقودنا إلى نتيجة مؤداها أن المتكلم يحرص على ألا يبقى نصّه أسيراً للنصح والإرشاد والوعظ فقط؛ بل إنه ينبّه المخاطَب حتى يهتدي إلى ما في مضامين القول من دلالات، تأخذ إلى عالم الانقياد والإقناع. لقد تجلى لنا المقوم البلاغي من خلال الصور البلاغية من استعارات وتشبيهات وتمثيل، وأساليب إقناعية حجاجية، وقد استند ابن نباتة في إنشائها إلى معطيات سابقة للخطاب، وثقافة مستمدة من واقعه، واستطاع بقدرته اللغوية أن يجري فيها ضروباً من التلخيص أو الحذف، أو التوسع أحياناً أو التحوير، ولعل هذا يكشف عن الطريقة التي قدم بها المتكلم نفسه، وصوّر بها أحوال مخاطبيه.

٣- المقوم الدلالي:

إن الحديث عن المقوم الدلالي في خطب ابن نباتة الفارقي يقودنا إلى الوقوف على المادة النصية؛ بوصفها خطاباً أُنتج لحظة التلفظ، ويعكس تكيّف المتكلم مع ظروف العصر وأحداثه الراهنة، وينفتح على مقامات التلفظ وأوضاع المتلقين، ولعل القراءة التداولية لتلك الخطب ستنقلنا إلى المقوم الدلالي الذي ينبعث من رحم المجتمع، وحالات أهل العصر والزمان، وليس من شك في أن تلك الخطب تحوي دلالات

متباينة على محيطها السياسي، والثقافي، والاجتماعي، وهكذا مثلت إطاراً مهماً من أُطر الوعي الدلالي، ولعلنا من هذا المنطلق عندما نقرأ تلك الخطب، نقرأها بالنظر إلى الواقع المعيش وصلتها به، يقول ابن نباتة في إحدى خطبه:" **اللهم انصر جيوش المسلمين حيث ما سلكوا من أقطار البلاد، وأمددهم بجيوش العون وكتائب الإسعاد، وقوّ نياتهم على القيام بمفترض الجهاد، وأمكنهم من نواصي الكفرة أهل الكفر والعناد، واستنقذ المأسورين والمأسورات من ضيق السجون ووثاق الأصفاد، وطهر ثغرنا هذا وثغور المسلمين من دنس الفساد، وأسبل سترك الجميل وحجابك المنيع على هذا السواد، وبلغنا في الدنيا والآخرة نهاية السُؤل والمراد، ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد، اللهم أهلك طاغية الكفر وناصريه، وأعوانه وموازريه، الذين يبغون إخمال ملتك، وزوال سنتك، وإدحاض حجتك، وسلوك غير محجتك، اللهم زلزل أقدامهم، ونكّس أعلامهم، وأنحس أيامهم وعجّل إرغامهم**" (الفارقي، د.ت، ص ص ٣٢٨-٢٢٩).

جاء هذا المقطع طافحاً بمعاني التشجيع وحث المقاتلين على القتال، ووقف ابن نباتة على نمط دلالي ينفتح على جوانب سياسية، وإسلامية، فتغدو تلك الجوانب مقومات دلالية، وموضوعات قرائية، تُسهم في البناء النصي للخطبة، وتُسهم في توعية المتلقي بمفهوم نسج الخطاب الذي قد يتشكل من أصداء واقتباسات ودلالات متنوعة، كما يصنع تركيباً من الثقافة السابقة التي تخترقه (بارت، ١٩٨٢م، ص ٦٣).

ومن هنا فإن هذه الخطبة وما جرى مجراها يمكن وصفها أرضاً خصبة وحقلاً واسعاً يجد فيه المتكلم أهدافه وحاجاته الذاتية التي ينقلها إلى أصناف المتلقين. ولعل هذا الجانب هو ما يمنح الخطبة عمقها الدلالي، فتتحول من خطاب شفهي يُلقى لحظة التلفظ إلى وثيقة تُخبر بما جرى، وتستعيد ما قد مضى. إن الخطبة من هذه الزاوية تكتب التاريخ الإسلامي والسياسي بطريقة استدعاء الأحداث، والوقائع، والشخصيات التاريخية، وهذه الطريقة تتيح المجال للخطيب/ المتكلم، بالتحرك داخل إطار المرجعي والمراوحة بين التاريخ والسياسة، يقول ابن نباتة:" **الحمد لله الذي اختار البقاء لنفسه وارتضاه، وقدّر الفناء على خلقه فقضاه... أيها الناس البسوا للدنيا جُنن الاجتناب، واسلكوا فيها سبيل أولي الألباب، فقد صرّحت لكم بِعبرها فما كنَتْ، ولوّحت إليكم بغيرها فما ونَت، وأرتكم من فتكها بالأمم من قبلكم، وَلْثاً، وأُنموذجاً يدلكم على فعلها بكم، فاكتفوا فيها بالعيان من الأثر، وكونوا من تمويهها على أشد الحذر، واجعلوا سِيَر الأولين فيها أسْمَاركم، وأجيلوا فيما صنع الدهر بهم أفكاركم، أين أهل المعاقل المنيعة، والمنازل الرفيعة، والأبنية العجيبة، والأفنية الرحيبة، والوجوه المنعمة، والمحال المعظمة؟**" (الفارقي، د.ت، ص ص٣٥-٣٧).

لقد تحولت فكرة الخطبة هنا وموضوعها إلى درس في الحياة وأسلوب للإصلاح، ولعل هذا هو الوجه الظاهر لنا، غير أن أمراً يلح على المتكلم؛ إذ إن في مضامين الخطبة اعتقادًا جازمًا بفناء الدنيا وزوالها بنقل وتصور واضح لغفلة الناس، فالخطبة هنا بوصفها خطاباً دلالياً قد يظهر من خلاله جملة من النصوص أو السلوكيات غير اللفظية، ولكن مزيّته أن المتكلم يقدمه من أجل خدمة عنصر دلالي يستنتجه المخاطب ويتصرف حسب مقامات التلفظ ومقتضيات القول. وإذا علمنا أن النص تتحقق أدبيته من خلال استخدام اللغة استخداماً إبداعياً، والأدب فن تصويري، يقوم على نظام خاص تحكمه قوانين داخلية (كيزيل، د.ت، ص ١٩٠).

فإن هذا المقطع السابق يكشف لنا دلالات وبنيات عميقة، يمكن أن تتجلى أكثر في طريقة عرض المتكلم لصورة المجتمع الذي أنتج النص فيه، أي مجتمع الذاكرة، ولعل ابن نباتة استغل هذه الأحداث وجعلها عناصر لبناء نصّه وتأسيساً على ذلك؛ فإننا نُعول على العلاقات الأدبية بين الخطبة والدلالة. إن حديث ابن نباتة عن أهوال البعث وتحذير الناس، هو في الأصل قراءة للمجتمع وإدراك للواقع المعيش. يقول أيضاً:" **أين من أطال الأمل، واستعذب المهل، وأرجأ العمل، واستكثر العبيد والحَوَل، أين المحجوب الممنّع، وأين الذكي الأروع، وأين الفصيح المِصقع، أين من كان فيه منظرٌ ومَسْمع؟ وخلال الشرف أجمع، مطرهم والله من الشتات سُحب هُمَّع، وحامت عليهم من الآفات طيرٌ وُقّع، وعصفت بهم من الممات ريحٌ زعزع، وابتلعتهم الفلاة البلقع... فهل من معتبرٍ غانٍ بالمشاهدة عن الإخبار، أو مفتكرٍ في سوء عواقب هذه الدار، قبل أن يكون الناظرُ منظوراً، والقابرُ مقبوراً**" (الفارقي، د.ت، ص ص ٣٧-٣٨).

وهكذا أضحت الخطبة فضاءً يتسع لاستيعاب معانٍ غير المعاني المباشرة، ففيها تنمو الدلالات التي تختزل الزمان والمكان والأفكار، بالإضافة إلى أن حضور المجاز هنا يُعد صورة من صور التكثيف الدلالي، ومهمته في هذا المقطع أن يُساعد المتكلم في النقل المجازي لمعاني الألفاظ وتحويلها إلى لغة مجازية، واستعارات فارقة للمألوف، هدفها إعلام الناس وإخبارهم بواقع حياتهم، ولعل هذا أيضاً ينقلنا إلى دلالة أخرى قد تكون نصّية يتعمدها المتكلم ذاته، وهي استعراض قدراته اللغوية وسعة خياله، واختياراته التي تتوالد في ذهنيته من خلال اللغة الفنية الإبداعية، وعليه فإن المعاني الإيحائية التي تحملها الكلمات ليست معانيها المعجمية العادية، وإنما هي معانٍ تُستوحى من مواضع الكلمات في سياقها الدلالي. ومما يزيد من تجليات المقوم الدلالي في خطب ابن نباتة، إدراج مقاطع من القرآن، والحديث الشريف، والأبيات الشعرية، ولعل هذا وجه من وجوه الاستعراض الثقافي أمام المتلقي؛ حيث يقول في إحدى خطبه:" **فتمسكوا بأقوى سبب من أسباب تقواه، وكونوا ممن يراقبه ويخشاه، ولا تأمنوا مكره{فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون}،**

واعلموا عباد الله أن ممر الليالي والأيام، ومكرّ الشـــهور والأعوام يُنذران بانقضـــابِ الأعمار، ويُؤذنانِ بخراب الديار" (الفارقي، د.ت، ص ١٣٤).

إن حضور الآيات القرآنية يحتاج إلى تأمل ينقلنا إلى موضوع الاقتباس ، وربما ينقلنا أكثر إلى الوعي بهذا الجانب لدى المتكلم، ورغبة في إشـــعار المتلقي بمثل هذا الاقتباس لغرض إقناعه وإفهامه. وهكذا تنكشـف لنا قدرة ابن نباتة الثقافية؛ إذ اسـتطاع أن يدمج النصـوص لتشـكل سـياقاً نصـياً متكاملاً يترك للمتلقي مهما كان مقامه تتبع تلك الإحالات النصـــية، يقول ابن نباتة آخذاً بمعنى آيات أخرى (الجديع، ١٤٢٧هـ، ص ٤٨٤): **"فدراك دراك، قبل حلول الهلاك، قبل هجوم ما لا يدفع، وذهاب مالا يرجع... هنالك يبرق البصـــر وينزل القدر، ويقول الإنســـان يومئذٍ أين المفر"** (الفارقي، د.ت، ص ص ٨-٩). فهو يشير إلى الآية السابعة من سورة القيامة قوله تعالى: فإذا برق البصر (الجديع، ١٤٢٧هـ، ص ٤٨٤).

ومن هنا يمكن أن نتبين امتلاك ابن نباتة الآليات الخارجية التي تساعده على إنجاز النص، ولعله بذلك يعدها جزءاً من بنائه وسياقه، لقد أكثر ابن نباته من التناص محاولاً إبراز الوجه الثقافي المشرق، من ذلك ما جاء في خطبة له في الموت وذم الدنيا، يقول:" **فأين بك أيها الراســـب في غمر تلك الأهاويل، عند التماس الخلاص وتعذر السـبيل... عند دعاء أهل الخسـران بالويل والعويل، هنالك يقيل المجرمون شـر مقيل، وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل إلى مرد من سبيل"** (الفارقي، د.ت، ص ١٢١).

إذا أنعمنا النظر في الآية القرآنية، نجد أن المعنى الصريح مُشكل من محتواها القضوى، وقوتها الإنجازية، إذ إن المحتوى القضـوي الرجوع إلى الحياة الدنيا مرة أخرى بعد الموت، وتتجلى قوتها الإنجازية الحرفية في أداة الاستفهام هل، ويتكون المعنى الصريح من حاصل ضم محتواها القضوي إلى قوتها الإنجازية الحرفية، في حين أن المعنى الضـــمني يتألف من معنيين هما: معنى عرفي يتمثل في الاقتضـــاء، أي اقتضـــاء حالهم الرجوع إلى الدنيا، ومعنى حواري استلزامي، وهو تمنيهم من الله أن يردهم إلى الدنيا. وعلى هذا النحو يتضح بما لا يدع مجالاً للشك أثر الآيات القرآنية في توجيه سياق الخطبة إلى وجهة تخدم الغرض من إيرادها، وحُسن توظيفها في سياقات مختلفة، فالاقتباس بنية صغرى مندرجة في سياق بنية كبرى، ويحمل قدرة تداولية تسمح بانتقاله من مصدره الأساسي، واندراجه في سياقات متعددة، وحضور الاقتباس يدل على نجاعته في تكوين سياق القصـد، وهو ما يُفسـر الغائية من اسـتحضـاره في خطاب آخر، وأثره الفاعل في تكوين إطار تواصـلي بين أطراف الخطاب، وما من شـك أنه مهما اكتنزت به خطب ابن نباتة من صـور بلاغية، ومحسـنات بديعية، فإنها تظل قاصـــرة دون بلاغة شـــواهد القرآن. ذلك أن القرآن الكريم هو القطب الذي تدور حوله مختلف المجهودات الفكرية والعقائدية للمسلمين (صمود، ١٩٨١، ص ٣٤) وهذا ما يُفسر قوة نفوذ القرآن الكريم؛ بوصـفه مرجعية دينية للمسـلمين عامة لا تشـوبه شـائبة. وقد يعمد ابن نباتة إلى إدراج الأحاديث النبوية؛

بحسب مقامات القول، ولعل هذا وجه من وجوه الدلالة الثقافية، بوصفها تُغذي النص وتقدح زناده، وهذا الجانب يقودنا إلى الإقرار بأن الخطبة خطاب يمكن أن يمتاز بالمرونة، ويستطيع أن يُطوع الأشكال والخطابات والسجلات لخدمة عوالمه، ومقاصده، وإمكاناته التدليلية، يقول ابن نباتة:" **الحمد لله الذي اختار البقاء لنفسه وارتضاه، وقدّر الفناء على خلقه فقضاه، وحكم فيهم بعدله فأمضاه، ويسّر كلاً لما خُلق له وأرضاه**" (الفارقي، د.ت، ص ٣٥). لعله هنا يشير إلى حديث النبي صلى الله عليه وسلم: "اعملوا فكل ميسر لما خُلق له"(رواه البخاري ومسلم، ٤٩٤٩) (الجديع، ١٤٢٧هـ، ص ٤٨٤).

إن المقوم الدلالي في خطب ابن نباتة يصدر عن وعي ثقافي؛ بوصفه مدلولاً نصياً ينتظم في إطار وموضوعات الخطبة وأغراضها؛ لكنها – أي الخطبة- في الوقت عينه تحظى بهامش واسع للانفتاح على الواقع والمجتمع والثقافة. وهكذا رأينا كيف يُسهم المقوم الدلالي في تغذية الخطبة، وتوسيع مجالاتها، وفتح مسالك القول لها، وجعلها ذات قراءات متعددة، تمتح من الواقع المعيش، وتنقل أحداثه السياسية والاجتماعية والدينية، وكأن ابن نباتة الفارقي كان عارفاً بما كان ووقع، ومدركاً لأهمية التنبيه والإشارة والتحذير والإغراء، والحث، فأصبحت مجموعة خطبه معماراً ثقافياً، ووجهاً من وجوه المجتمع في تلك الفترة.

الخاتمة:

تُسهم هذه الدراسة في مثاقفة إيجابية تروم وضع لبنة في منظومة العلوم التواصلية، وتتغيا مُساءلة النصوص، وبعث مدونات التراث العربي من جديد، وإعادة قراءة تراثنا بوعي جديد، والكشف عن حقيقة الممارسة الواعية عند كتابة تلك النصوص، وما تزخر به من مضامين إبداعية. فالخطيب عندما يخطب فإنه يتحدث بهاجس يؤرقه يؤثر إن قليلا أو كثيراً في أقواله؛ بيدَ أنّ ميثاق الخطبة الذي التزم به أمام المتلقي، وطبيعة موضوع قوله، ومقاصده التداولية، تجعله تحت تأثير ما يقتضيه الواقع المرجعي، وتفرضه عليه طرائق الخطبة ومناويلها السابقة .

ولعل وجه الطرافة في البحث أن تكون هذه هي الفكرة التي أردنا أن نبسط القول فيها. وقد كان همّنا أن نقف في القسم الأول منه على تجليات المقام فرأينا في مقام المتكلم، كيف تجلت صورة ابن نباتة خطيباً عارفاً بأسرار هذا الجنس الأدبي، واستغلال هذا الجانب في بناء نصه، وقدرته على المقارنة بين الأقوال والوقائع الاجتماعية والسياسية، ورأينا أيضا عند معالجة مقام المتلقي كيف نظر ابن نباتة؛ بوصفه خطيباً/ متكلماً في صوغ خطابه وفق مقتضيات القول، وتوجيه خطابه وجهة مخصوصة، وقراءة أحوال المتلقين وأفق انتظارهم. فالمخاطَب عنده يحتل منزلة رفيعة تستوجب اشتغال الآلة الإقناعية.

أما القسم الثاني من هذا العمل؛ فقد كان همنا الكشف عن مقومات تلك الخطب، وكان يدور في محاور ثلاثة أولها المقوم السردي الذي بين أن الخطبة قد تحوي مقاطع سردية إن طويلة أو قصيرة، وتندرج

ضمنها شخصيات واقعية؛ فكان السرد خطاباً مُضمناً مُسهماً في إدراج الخطبة ضمن إطار الأدبية. أما المقوم الثاني هو المقوم البلاغي الذي كشف عن قدرة ابن نباتة وبرعاته في التصوير والتمثيل، ونقل الوقائع عبر صور متباينة، وكذلك امتد هذا المقوم ليكشف لنا وجها من وجوه الخطاب التداولي، وهو استخدام الأدوات الحجاجية لأجل الإقناع بأطروحته. وثالث هذه المقومات هو المقوم الدلالي الذي قادنا إلى النظر فيما وراء الخطاب والمعاني المتخفية التي يرغب الخطيب في نقلها من خلال معطيات لغوية وأدبية توضح الدلالة الثقافية للخطبة، والدلالة السياسية، والاجتماعية، ونقل ما كان يقع من أحداث في تلك الحقبة.

لقد كان همّنا الوقوف على أدبية خطب ابن نباتة؛ بوصفها جنساً أدبياً مستقلاً له خصائصه وسماته، من خلال القراءة التداولية التي فتحت مسالك الأدبية؛ وعليه فإننا نقترح أن تعالج هذه الخطب في دراسات لاحقة معالجة سيميائية تكشف عن تلك العلاقات الدالة على ترابطها، وتجانسها، وتقاربها في أغرضها، والنظر في مستوى السطح والعمق. والحمد لله أولاً وأخيراً.

المراجع:

بارت، رولان. (١٩٨٢م). درس السيميولوجيا، تر: عبد السلام عبد العلي. ط١. دار توبقال: الرباط.

بارت، رولان. (١٩٩٤م). قراءة جديدة للبلاغة القديمة، تر: عمر أوكان. د.ط. أفريقيا الشرق: الرباط.

الجاحظ، عمرو بن بحر. (١٩٨٥م). البيان والتبين، تح: عبد السلام هارون. ط٥. مكتبة الخانجي: القاهرة.

الجديع، خالد. (١٤٢٧هـ). خطب ابن نباتة الفارقي، الرؤية والفن، عالم الكتب، مج٢٧، عدد ٥، الربيعان، الجماديان.

الجرجاني، عبد القاهر. (٢٠٠٤م). دلائل الإعجاز، تح: محمود شاكر. د.ط. مكتبة الخانجي: القاهرة.

الجرجاني، علي. (١٩٨٣م). كتاب التعريفات. ط١. دار الكتب العلمية: بيروت.

الجوة، أحمد. (٢٠١٩م)، قراءات إنشائية في أنماط الكتابة الأدبية. ط١. دار كنوز للنشر: عمان.

الحباشة، صابر. (٢٠٠٨م). التداولية والحجاج مداخل ونصوص. ط١. صفحات للدراسات والنشر: دمشق.

حلمي، مصطفى. (٢٠٠٤م). الأخلاق بين الفلاسفة وعلماء الإسلام. ط١. دار الكتب العلمية: بيروت.

ابن خلكان. (د.ت). وفيات الأعيان، تح: إحسان عباس. د.ط. دار الكتب العلمية:بيروت.

دايل، فان. (٢٠٠٠م). النص والسياق، استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، تر: عبدالقادر، قنيني. ط١. إفريقيا الشرق: الدار البيضاء.

ديكرو، أوزوالد؛ جان ، ماري ستشافير. (٢٠٠٧م). القاموس الموسوعي العلوم اللسان، تر: منذر عياشي. ط١. المركز الثقافي العربي: الدار البيضاء.

الرقبي، رضوان. (٢٠١٨م). البلاغة والحجاج (بحث في تداولية الخطاب). ط١. أفريقيا الشرق: الدار البيضاء.

الزواوي، بغورة. (٢٠٠٣م). منزلة تحليل الخطاب في فلسفة اللغة. مجلة الجمعية الفلسفية في مصر، ١٢(١٢).

الساعي، أحمد بسام. (١٩٨٤م). الصورة بين البلاغة والنقد. ط١. المنارة للطباعة والنشر والتوزيع: دمشق.

السكاكي، يوسف بن أبي بكر. (١٩٧٨م). مفتاح العلوم، تح: نعيم زرزور. ط٢. دار الكتب العلمية: بيروت.

سليم، عبدالإله. (٢٠٠١م). بنيات المشابهة في اللغة العربية. د.ط. دار توبقال للنشر: الدار البيضاء.

الشبعان، علي. (٢٠١٠م). الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل: في نماذج ممثلة في تفسير سورة البقرة (بحث في الأشكال والاستراتيجيات). ط١. دار الكتاب الجديد المتحدة: بيروت.

صحراوي، مسعود. (٢٠١١م). في الجهاز المفاهيمي للدرس التداولي المعاصر، ضمن: التداوليات علم استعمال اللغة، إعداد وتقديم: حافظ اسماعيلي علوي. د.ط. عالم الكتب الحديث: أربد.

الصراف، علي محمود. (٢٠١٠م). في البراجماتية، الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة، دراسة دلالية ومعجم سياقي. ط١. مكتب الآداب: القاهرة.

صمود، حمادي. (١٩٨١). التفكير البلاغي عند العرب، مشروع قراءة. منشورات الجامعة التونسية: تونس.

طبق، عبد الجواد محمد. (١٩٩٣م). دراسة بلاغية في السجع والفاصلة القرآنية. ط١. دار الأرقم: القاهرة.

علي، محمد عديل عبد العزيز. المقاربة التداولية لخطاب المناظرة (العصر العباسي أنموذجاً). ط١. دار البصائر: القاهرة.

عوادي، مالك. (٢٠١٨م). الخطاب الحجاجي عند الإمام محمد الغزالي، رسالة دكتوراه، جامعة محمد خضر بسكرة، كلية الآداب واللغات –الجزائر.

الفارقي، بن نباتة. (د.ت). ديوان خطب ابن نباتة، تح: الشيخ طاهر أفندي الجزائري. د.ط. مطبعة جريدة بيروت: بيروت.

القاضي، محمد؛ وآخرون. (٢٠١٠م). معجم السرديات. ط١. دار محمد علي للنشر: تونس.

الكواكبي، عبدالكريم. (٢٠١٧م). تداولية المقام. ط١. عالم الكتب الحديث: عمان.

كونديدرا، ميلان. (٢٠٠١م). فن الرواية، تر: بدر الدين عرودكي. د.ط. أفريقيا الشرق: الدار البيضاء.

كيزيل، إيديث. (د.ت). عصر البنيوية من ليفي شتراوس إلى فوكو، تر: جابر عصفور. ط١، بغداد.

لحميداني، حميد. (٢٠١٥). بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي. ط٤. المركز الثقافي العربي: بيروت.

KING KHALID UNIVERSITY

King Khalid University Journal of Humanities

Biannual Refereed Journal

Volume 9 – Number1

2022 AD 1443 AH